العصر اسلامک ریسرچ جرنل
AL-ASR Islamic Research Journal
Publisher: Al-Asr Research Centre, Punjab Pakistan
E-ISSN 2708-2566 P-ISSN2708-8786
Vol.02, Issue 04 (October-December) 2022
HEC Category "Y"
https://alasr.com.pk/ojs3308/index.php/alasar/index

Title Detail

Urdu/Arabic: خصائص الاستعارات القرآنية عند الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره

English: Characteristics of the Qur'anic Metaphors According to Sheikh Muhammad al-Tahir ibn Ashur in his Exegesis

Author Detail

1. Dr. Shakeel Ahmad
Lecturer, Department of Arabic Language and Literature
Allama Iqbal Open University, Pakistan
Email:shakeelahmad@aiou.edu.pk

2. Dr. Musaab Iftikhar Durrani
Lecturer, Department of Tafseer & Quranic Sciences
Faculty of Usuluddin, International Islamic University, Islamabad
Email: musaab.iftikhar@iiu.edu.pk

How to cite:
Dr. Shakeel Ahmad, and Dr. Musaab Iftikhar Durrani. 2022. " خصائص الاستعارات القرآنية عند الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره: Characteristics of the Qur'anic Metaphors According to Sheikh Muhammad Al-Tahir Ibn Ashur in His Exegesis". AL- ASAR Islamic Research Journal 2 (4). https://alasr.com.pk/ojs3308/index.php/alasar/article/view/70.

Copyright Notice:
This work is licensed under a Creative Commons Attribution 3.0 License.

خصائص الاستعارات القرآنية عند الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره

Characteristics of the Qur'anic Metaphors According to Sheikh Muhammad al-Tahir ibn Ashur in his Exegesis

Dr. Shakeel Ahmad
Lecturer, Department of Arabic Language and Literature
Allama Iqbal Open University, Pakistan
Email:shakeelahmad@aiou.edu.pk

Dr. Musaab Iftikhar Durrani
Lecturer, Department of Tafseer & Quranic Sciences
Faculty of Usuluddin, International Islamic University, Islamabad
Email: musaab.iftikhar@iiu.edu.pk

Abstract

The Qur'anic metaphors are characterized by unique characteristics that are clothed in a suit of splendor and beauty in expression and magnificence in artistic depiction, which indicates the miraculousness of the Holy Qur'an. This article aims to reveal these characteristics of Sheikh Ibn Ashour, who is considered one of the pioneers of contemporary rhetorical exegesis, as he dealt with Qur'anic metaphors in his exegesis **"at-Tahrir wa at-Tanwir"** in a wonderful artistic way that expresses the reasoning, phycological state, and tangible event that these metaphors included. He resorts to the figurative language images inherent in the Quranic metaphors, giving them their colors and shades, and through his careful reflection, he highlights the artistic characteristics of the metaphors that made them of great value, especially as they are achieved lofty and noble goals for which the Quran was revealed. This testifies to the length of this great scholar in extracting metaphorical meanings in a unique scientifically way, his creative capabilities, and his artistic innovations in the field of figurative language, through which his deep and comprehensive view is evident, which indicates the extent of his ability and knowledge of the product of his progress and his uniqueness in the eloquence of expressing Qur'anic metaphors.

Keywords: Characteristics, Quranic Metaphors, Ibn Ashur, at-Tahrir wa at-Tanwir

الملخص

تتميز الاستعارات القرآنية بخصائص فذة تكتسي حلة من البهاء والجمال في التعبير والروعة في التصوير الفني الدالة على إعجاز القرآن الكريم البياني. يهدف هذا المقال إلى الكشف عن تلك الخصاص عند الشيخ ابن عاشور الذي يُعد أشهر أعلام التفسير البياني في عصره حيث تناول الاستعارات القرآنية في تفسيره "التحرير والتنوير" بصورة فنية بديعة معبرة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، والحادث المحسوس التي تضمنتها تلك الاستعارات المتنوعة. فهو يَعمد إلى الصور البيانية الكامنة في الاستعارات

القرآنية فيعطيها ألوانها وظلالها، ويُبرز بتأمله الدقيق ما تحلّت به الاستعارات من خصائص فنية التي جعلتها ذات قدر وقيمة بيانية كبرى لاسيما أنها حققت أهدافا سامية وغايات نبيلة التي من أجلها أنزل القرآن الكريم. ويشهد هذا على طول باع هذا العَلَم في استخراج المعاني الاستعارية بصورة عقلية فريدة، وإمكانياته الإبداعية، ومبتكراته الفنية في مجال التفسير البياني، والتي تتجلى من خلالها نظرته العميقة الشاملة التي تنم عن مدى تمكنه واطلاعه على نتاج من تقدمه، وتفرده عنهم في بلاغة التعبير عن الاستعارات القرآنية.

الكلمات المفتاحية: خصائص، الاستعارات القرآنية، ابن عاشور، التحرير والتنوير

لقد تناول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إعجاز القرآن في تفسيره بعناية فائقة، وذلك لأن أحد أغراض تفسيره هو بيان إعجاز القرآن الكريم، وفي ذلك يقول:

"وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض ([1]).

وهذا التفسير أشبه بدائرة معارف، فقد استطاع الشيخ الطاهر بن عاشور أن يخلع على منهج التفسير القديم صبغة عقل جديد، وبالرغم من أنه لم يعدل طريقة التفسير القديم تعديلاً جوهريا، لكنه يسهم في إيجاد صفوة مسلمة تعشق التجديد الأدبي وتفتح أبواب النقاش الديني فيقول:

"وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده ويتناول منه فوائد ونكتاً على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن، وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير"([2]).

كان الشعر العربي حين أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم، نوراً يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة، لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط، فقد كانوا عبدة البيان، قبل أن يكونوا عبدة الأوثان، وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم، و لم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم ([3]).

هذه الظروف النفسية التي نزل فيها القرآن الكريم، فكان لإعجازه أن ينفذ إلى الأرواح- بصفة عامة ي زمن النزول- على هذا السبيل، أي بما ركب في الفطرة العربية من ذوق بياني. وكتب ابن عاشور مقدمة لتفسيره تكشف عن تعمقه في اللغة العربية، والتعمق في تفهم روح الشريعة ومقاصدها وفي ذلك يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في المقدمة العاشرة من تفسيره:

" فأما أنا فأردت في هذه المقدمة أن ألم بك أيها المتأمل إلمامة ليست كخطرة طيف، ولا هي كإقامة المنتجع في المربع حتى يظله الصيف، وإنما هي لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزاً، وتتبصر منها نواحي إعجازه، وما أن بمستقص دلائل الإعجاز، في آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنفاته وكل صغير وكبير مستطر، ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب، حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر، وفتح عقول، وفتح ممالك، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمة من قبل، وكنت أرى الباحثين ممن تقدمني يخلطون هذين الغرضين خلطاً، وربما أهملوا معظم الفن الثاني، وربما ألموا به إلماماً، وخلطوه بقسم الإعجاز وهو الذي يحق أن يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير، ولعلك تجد في هذه المقدمة أصولاً ونكتاً، أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن([4]).

كما حرص الشيخ الطاهر ابن عاشور على إبراز العلاقة بين علم إعجاز القرآن، وبين أصول الاعتقاد، وفي ذلك يقول:" ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصيل كبير من أصول الإسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحدياً صريحاً"([5]).

لقد استأنس الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بالاستعارة في تفسيره للقرآن الكريم، وناقش عدداً من القضايا المترتبة على وجود الاستعارة في القرآن، واحتج على المخالف بحجج لغوية تداولية، وأخرى عقدية كلامية، كما احتج أيضاً بمسائل بلاغية تتصل بعلاقة الاستعارة بـــ " الدغدغة النفسية" على حد عبارة فخر الدين الرازي ([6]).

ولعل الدافع الذي حمل ابن عاشور على توظيف الاستعارة وبيان مواضعها واستعمالاتها؛ هو كثرة ورودها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مثلما أبان عن ذلك المشتغلون بعلم البلاغة وعلم اللسان، إذ يؤكد ابن رشيق أن الاستعارة كثيرة في كتاب الله عز وجل وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله تعالى " إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ" ([7])، وقوله تعالى " وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ"([8])، وقوله تعالى: " إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ "([9])، فالشهيق والغيظ استعارتان، وقوله تعالى: " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ" ([10])، وكثير من هذا لو تقصي لطال جداً، وقول النبي صلى الله عليه وسلم (ربّ تقبّل توبتي، واغسل حوبتي) فغسل الحوبة استعارة مليحة([11]).

ولئن اعترف الجمهور بأهمية الاستعارة في النص الشرعي، ورصدوا موضع ورودها وخاصة فيما يتعلق بمفهومي الصلاة والزكاة، وكذا الأمر في تعريف بعض الأدلة وخاصة مفهوم القياس، فإنهم

كشفوا عن قضايا هامة لعلها حجتهم في توظيف هذه الاستعارة في أبواب التشريع، وتعليل نجاعتها اللغوية والدلالية والنفسية ([12]).

كما حرص الشيخ الطاهر ابن عاشور على إبراز العلاقة بين علم إعجاز القرآن، وبين أصول الاعتقاد. وينطلق الشيخ عاشور من مرجعية لغوية في الكشف عن جماليات الاستعارة في القرآن الكريم، واحتجاجه اللغوي فيرجع إلى استئناس العرب بالاستعارة والمجاز في تداولهم، وهذا الاستئناس ينهض على مسلمة تصل المجاز بالبيان اللفظي والمعنوي، أما اللفظي،" فهو أن يكون اللفظ الدال على الشيء بالحقيقة ثقيلاً على اللسان: إما لأجل مفردات حروفه، أو لتنافر تركيبه، أو لثقل وزنه، واللفظ المجازي يكون عذباً، فتترك الحقيقة إلى هذا المجاز([13]).

ويظهر جمال الاستعارة في وعي الشيخ عاشور بجمالية التلقي ودقتها في قذف المعنى عند القارئ وإثارة التخييل عنده، وهو ما يبرر حديث حازم القرطاجني عن صلة التخييل بانسجام التركيب وتخير اللفظ:" فيجب ألا يسلك بالتخييل مسلك السذاجة في الكلام، ولكن يتقاذف بالكلام في ذلك إلى جهات من الوضع الذي تتشافع فيه التركيبات المستحسنة، والترتيبات والاقترانات، والنسب الواقعة بين المعاني ([14]).

يرى الشيخ في قوله تعالى:" أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"([15]) استعارة تمثيلية مكنية شبهت الحالة بالحالة وحذف لفظ المشبه به وهو المركب الدال على الركوب كأن يقال راكبين مطية الهدى وأبقى ما يدل على المشبه وهو أولئك والهدى، ورمز للمركب الدال على المشبه به بشيء من لوازمه وهو لفظ " على" الدال على الركوب عرفا كما علمتم، فتكمل لنا في أقسام التمثيلية الأقسام الثلاثة: الاستعارة كما في الاستعارة المفردة، فيكون التمثيل منه مجاز مرسل كاستعمال الخبر في التحسر ومنه استعارة مصرحة نحو" أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى"، ومنه مكنية كما في الآية على رأينا([16]).

وفي قوله تعالى: " خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ"([17]) يرى الشيخ أن الختم على القلوب والاسماع والغشاوة على الأبصار ليس حقيقة، ولكنه إما على طريق الاستعارة بشبيه عدم حصول النفع المقصود منها بالختم والغشاوة ثم إطلاق لفظ ختم على وجه التبعية، ولفظ الغشاوة على وجه الأصلية، وكلتاهما استعارة تحقيقية، إلا أن المشبه محقق عقلاً لا حساً ([18]).

ويتبادر إلى الذهن سؤالاً مؤداه: وكيف يعاقب هؤلاء وقد كفروا نتيجة الختم على قلوبهم وسمعهم ولوجود غشاوة على أبصارهم فهم معذورون في عدم رؤية الحق، وكذلك هذه القلوب المريضة بضعف الإيمان أو النفاق والشك زادها الله مرضاً على مرضها، وربما سأل سائل: أما كان أولى أن

يشفيهم مما هم فيه أو يلتمس لهم العذر عما يبدر منهم إذ ليس على المريض حرج خصوصاً مرضى القلوب، ومثل هذا في القرآن كثير نحو ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ([19]). وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ ([20]).

هنا يتجلى دور التأويل اذي يتجاوز نطاق اللغة والتفسير لتتحقق الملاءمة بين كلام الله وعدالته، بل يكون التأويل بمفهومه التداولي الواسع أمراً لا مفر منه متجاوزاً سياق الحال والمقام بل وأسباب النزول، فهذا كله عند الزمخشري من باب المجاز أو إن الختم من فعل الشيطان، ونُسب إلى الله لأنه أقدره على ذلك، أو أنه دعاء عليهم كما قال تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾([21]).

وأبعد بعضهم في التأويل وقالوا هذا الختم سمة وعلامة لهذه القلوب لتعرفهم بها الملائكة يوم القيامة أو أنها شهادة من الله بأن هذه القلوب لا تسعى للذكر([22]).

وتساءل الزمخشري: فإن قلت ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟

قلت: لا ختم ولا تغشية ثمة على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه، وهما الاستعارة والتمثيل، فأما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم؛ لأن الحق لا ينفذ فيها، ولا يخلص إلى ضمائرها، من قبل إعراضهم عنه، واستكبارهم عن قبوله، واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجه، وتنبوا عن الإصغاء إليه، وتعاف استماعه، كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة، ودلائله المنصوبة، كما تجتليها أعين المعتبرين، المستبصرين، كأنما غطي عليها، وحيل بينها، وبين الإدراك.

وأما التمثيل فإن تمثل حيث لم ينقفوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها، وخلقوا من أجلها، بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الانتفاع بها، بالختم والتغطية. وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعي ختماً عليه فقال:

ختم الإله على لسان عُذافِر ختما فليس على الكلام بقادر

وإذا أراد النطق خِلتَ لسانه لحما يحركه لصَقر ناقِر

([23])

ونرى أن الاستعارة هنا هي ما سماها المتأخرون الاستعارة المكنية، حيث ذكر شبه القلوب والأسماع بأشياء يستوثق منها بالختم، فصارت كأنها مستوثق منها كما يقول، إلا أن العلامة سعد الدين لا يرضى بهذا الذي نفهمه، ويقول إنه يريد تشبيه عدم نفوذ الحق إلى القلوب، وتحقق نبو الأسماع عن

قبوله بالختم عليها، أي بكونها مختوماً عليها على ما ينبئ عنه قوله كأنها مستوثق منها بالختم، ويشبه عدم اجتلاء الأبصار للآيات والأدلة بالتغشية عليها.

ثم يقول: وقد يتوهم من ظاهر عبارة الكتاب أن المشبه هو القلوب والأسماع، ومن ههنا ذهب بعضهم في القول الأول إلى أن القلوب استعارة بالكناية والختم تخييل.. ولا يخفى على من له قدم في علم البيان أن الأولى ما ذكرنا، وأن قوله تجعل القلوب إلى آخره بمنزلة قولك يجعل الحال لكونها دالة على كذا، كأنها ناطقة به- وأن عبارته ظاهرة في أن الختم والتغشية مجاز ([24]).

وفي قوله تعالى: " يُخادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ"([25])

يتفق الشيخ مع صاحب الكشاف أن " يخادعون" استعارة تمثيلية تشبيها للهيئة الحاصلة من معاملتهم للمؤمنين ولدين الله ومن معاملة الله إياهم في الإملاء لهم والإبقاء عليهم، ومعاملة المؤمنين إياهم في إجراء أحكام المسلمين عليهم، بهيئة فعل المتخادعين ([26]).

وقوله تعالى: "وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ"([27])

يرى الشيخ أنها استعارة تمثيلية تعبر عن إضاعة القصد أي أنهم أضاعوا ما سعوا له و لم يعرفوا ما يوصل لخير الآخر ولا ما يضر المسلمين.. شبه سوء تصرفهم حتى في كفرهم بسوء تصرف من يريد الربح فيقع في الخسران ([28]).

وقوله تعالى: " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا " ([29])

يرى الشيخ أن هذه الآية أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة، وهذه طريقة تشبيه التمثيل، إلحاقا لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة؛ لأن النفس إلى المحسوس أميل([30]).

" والذي استوقد ناراُ" مفرد مراد به مشبه واحد؛ لأن مستوقد النار واحد، ولا معنى على اجتماع جماعة على استيقاد نار ولا يريبك كون الحالة المشبه حالة جماعة المنافقين، كأن تشبيه الهيئة بالهيئة كأنه يتعلق بتصوير الهيئة المشبهة بها لا بكونها على وزن الهيئة المشبهة فإن المراد تشبيه حال المنافقين في ظهور أثر الإيمان ونوره مع تعقبه بالضلالة ودوامه بحال من استوقد نارا([31]).

ويلقي الشيخ مزيداً من الضوء في تحليل هذه الصورة فيقول:" ومن بدائع هذا التمثيل أنه مع ما فيه من تركيب الهيئة المشبه بها ومقابلتها للهيئة المركبة من حالهم هو قابل لتحليله بتشبيهات مفردة لكل جزء من هيئة أحوالهم، بجزء مفرد من الهيئة المشبه بها فشبه استماعهم القرآن باستيقاد النار، ويتضمن تشبيه القرآن في إرشاد الناس إلى الخير والحق بالناء في إضاءة المسالك للسالكين وشبه رجوعهم إلى كفرهم بذهاب نور النار، وشبه كفرهم بالظلمات، ويشبهون بقوم انقطع أبصارهم ([32]).

وقوله تعالى: (يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ)([33]).

في الآية لمحة دالة ووحي لطيف وإشارة بليغة لهلع المشركين من عذاب الله المحيط بهم لا محالة، فالآية تحمل الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ.

يقول الشيخ: والإحاطة استعارة للقدرة الكاملة شبهت القدرة التي لا يفوتها المقدور بإحاطة المحيط بالمحاط على طريقة التبعية أو التمثيلية وإن لم يذكر جميع ما يدل على جميع المركب الدال على الهيئة المشبهة بها، وقد استعمل هذا الخبر في لازمه وهو أنه لا يفلتهم وأنه يجازيهم على سوء صنعهم([34]).

كما تطرق الشيخ إلى الاستعارة المحتملة ما بين المكنية إذا كانت قائمة على التشبيه. والتبعية- كما يرى التفتازاني- إذا كان التركيز على الحدث أو الوصف وليس الذات في قوله تعالى: " وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ "([35])

يقول الشيخ: هذه استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها وذكر الضرب تخييل لأنه ليس له شبيه في علائق المشبه. ويجوز أن يكون ضربت استعارة تبعية وليس ثمة مكنية بأن شبه لزوم الذلة لهم ولصوقها بلصوق الطين بالحائط، ومعنى التبعية أن المنظور إليه في التشبيه هو الحدث والوصف لا الذات بمعنى أن جريان الاستعارة في الفعل ليس بعنوان كونه تابعاً لفاعل كما في التخييلية بل بعنوان كونه حدثاً، وهو معنى قولهم أجريت في الفعل تبعاً لجريانها في المصدر وبه يظهر الفرق جعل ضربت تخييلاً وجعله تبعية وهي طريقة في الآية سلكها الطيبي في شرح الكشاف وخالفه التفتازاني وجعل الضرب استعارة تبعية بمعنى الإحاطة والشمول سواء كان المشبه به القبة أو الطين ، وهما احتمالان مقصودان في هذا المقام يشعر بهما البلغاء([36]).

وتناول الشيخ حال الإنسان الشقي الذي شملته الخطيئة وأحاطت به من كل جانب، فلا يستطيع أحد إنقاذه من العذاب في قوله تعالى: " وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ "([37]) في الآية استعارة لتصوير شدة انصراف العاصي عن تدبر آيات الله، وتركه الإصغاء إلى سماع الحق.

يقول الشيخ: الخطيئة اسم لما يقترفه الإنسان من الجرائم، وهي فعيلة بمعنى مفعولة من خطى إذا أساء، والإحاطة مستعارة لعدم الخلو عن الشيء؛ لأن ما يحيط بالمرء لا يترك له منفذاً للإقبال على غير ذلك قال تعالى (وظنوا أنهم أحيط بهم) وإحاطة الخطيئات هي حالة الكفر التي تجريء على جميع الخطايا([38]).

يندد الخطاب القرآني بالموقف المتذبذب للمنافقين، حيث يسخر منهم الحق سبحانه وتعالى حيث يجتمع فيهم الضدان(الكفر والإيمان) والآية ذم لهؤلاء وزجر لهم وتقبيح لفعلهم وكفرهم، وليس

حكماً عاماً، أو كأن الله يخبرنا بأن من الناس من سيبقى على الكفر ولا يلين قلبه دون أن يحددهم لنا. قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: والكافرون صنفان: صنف كفر بالله، وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فآمن، والصنف الآخر مستفيد من الكفر؛ لأنه يريد أن يحتفظ بسلطاته الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان، ولا يقبل أن يجرد منهما ولو بالحق([39]).

هذا القسم هو الذي قال عنه الله تبارك وتعالى **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)**([40]).

أما قوله تعالى: " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ "([41]) فيقول الشيخ الطاهر بن عاشور :" في الآية استفهام انكاري توبيخي أي كيف تعمدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم واتبعتموها في فداء أسراهم، وسمي الإتباع والإعراض إيماناً وكفراً، على طريقة الاستعارة لتشويه المشبه، وللإنذار بأن تعمد المخالفة للكتاب قد تفضي بصاحبها إلى الكفر به، وإنما وقع " تؤمنون" في حيز الإنكار تنبيهاً على أن الجمع بين الأمرين عجيب وهو مؤذن بأنهم كادوا أن يجحدوا تحريم إخراجهم، أو لعلهم جحدوا ذلك وجحد ما هو قطعي من الدين مروق من الدين. والفاء عاطفة على تقتلون أنفسكم، وما عطف عليه، عطفت الاستفهام، أو عطف مقدر دل عليه الاستفهام([42]).

وتناول الشيخ الاستعارة التبعية من خلال الارتداد إلى الماضي وإسقاطه على الحاضر من خلال تذكر السيرة العطرة للخليل إبراهيم عليه السلام الذي أرسى قواعد البيت في مكة المكرمة بمعاونة ابنه إسماعيل عليه السلام في قوله تعالى: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"([43])

يقول الشيخ:" خولف الأسلوب الذي يقتضيه الظاهر في حكاية الماضي أن يكون بالفعل الماضي بأن يقول وإذا رفع إلى كونه بالمضارع لاستحضار الحالة وحكايتها كأنها مشاهدة؛ لأن المضارع دال على زمن الحال، فاستعماله هنا استعارة تبعية، شبه الماضي بالحال لشهرته، ولتكرر الحديث عنه بينهم، فإنه لحبهم إبراهيم وإجلالهم إياه، لا يزالون يذكرون مناقبه، وأعظمها بناء الكعبة، فشبه الماضي لذلك بالحال"([44]).

يهتم الطاهر بن عاشور بإبراز خصائص الاستعارة من خلال الملامح الخاصة للأسلوب القرآني، وطريقة بنائه وتركيبه، وسر الجمال في وضع هذه الكلمة هنا، وفي مجيء الكلمة على هذا النحو، معرفةً أو منكرةً أو في مجرد ذكرها أو حذفها.

وعندما يتناول قوله تعالى: "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ" ([45]).

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: " فقوله "صبغة الله" رد على اليهود والنصارى معاَ. أما اليهود فلأن الصبغة نشأت فيهم، وأما النصارى فلأنها سنة مستمرة فيهم، وما كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد والعمل المشار إليهما بقوله" قولوا آمنا بالله" إلى قوله" ونحن له مسلمون" أي إن كان إيمانكم حاصلاً بصبغة القسيس فإيماننا بصبغ الله وتلوينه، أي تكييفه الإيمان في الفطرة مع إرشاده إليه، فإطلاق الصبغة على الإيمان استعارة علاقتها المشابهة وهي مشابهة خفية، حسنها قصد المشاكلة، والمشاكلة من المحسنات البديعية ومرجعها إلى الاستعارة، وإنما قصد المشاكلة باعث على الاستعارة، وإنما سماها العلماء المشاكلة لخفاء وجه الشبه، فأغفلوا أن يسموها استعارة وسموها المشاكلة، وإنما هي الإتيان بالاستعارة لداعي مشاكلة لفظ للفظ وقع معه"([46]).

فالملاحظ من خلال الأمثلة السابقة أن تناول الشيخ الطاهر بن عاشور للاستعارة أقرب إلى الدراسة التطبيقية التي تكشف عن مواطن الجمال وتميل إلى التحليل والتعليل، كما أنها تمتاز بدقة التحليل، مما يجعلنا نقول إنه خطا بمفهوم الاستعارة خطوة عن الذين سبقوه.

ومما يجدر ذكره أن ابن عاشور حاول مقاومة التيار الأجنبي في البلاغة العربية فلا يستعين بمذاهب الفلاسفة في النقد، وحاولتهم زج المنطق الشكلي في فهم اللغة، وتذوقها، والكتابة فيها، ويحرص على أن يظل النظر في مسائل اللغة، خاضعا للتقاليد الأدبية العربية الصحيحة، وممارسة النصوص الموروثة، وهو في هذا محافظ يريد أن ينجو بسلامة الذوق الأدبي، ونفاذه من الجمود والسطحية، اللذين كانا يخشى أن ينتهي بهما المنطق بإنزالهما بالسليقة العربية الأصيلة([47]).

الخاتمة

هذه الدراسة لا تعود إلى التراث لتستعرض مفهومات البلاغة كما وعاها جيل الرواد فحسب، وإنما تعود لتصل مفهوماتنا بمفهوماتهم، وتعيد قراءة منجزهم في ضوء ما يشغلنا من أسئلة وما نستشرفه من طموح، انطلاقا من أن التراث فعل غير مكتمل في التاريخ، وأن كل قراءة تعيد تكوين مقروئها بدرجة أو أخرى، وتأتي أهميتها من قدرتها على إدراك مقروئها، وسياقات إنتاجه، والوعي بلحظتها التاريخية، ودواعي هذه القراءة وغاياتها.

يتأسس ذلك على فرضية ترى أن التراث لا يقتصر على فترة زمنية محددة، وإنما يتسع ليضم كل ما شكل وعينا، أو يمكن أن يكون جزءاً من هذا الوعي، سواء أكان ينتمي زمنيا للماضي البعيد، أم للأمس القريب، وأن حاجتنا لقراءة التراث البلاغي لا تتعلق بظرف تاريخي، ولا بشرط اجتماعي، وإنما هي جزء من سؤالنا الحالي، أو يجب أن تكون كذلك؛ فقدرتنا على مراجعة مصادرنا التي شكلت

وعينا، وتشكل بها ليست خياراً يمكن أن نفعله أو ندعه، وإنما هي ضرورة تتأكد بها ذواتنا في علاقتها بماضيها، وحاضرها، ومستقبلها جميعاً.

نتائج الدراسة

1- تناول الشيخ الطاهر بن عاشور للاستعارة أقرب إلى الدراسة التطبيقية التي تكشف عن مواطن الجمال وتميل إلى التحليل والتعليل، كما أنها تمتاز بدقة التحليل، مما يجعلنا نقول إنه خطا بمفهوم الاستعارة خطوة عن الذين سبقوه.

2- اعتمدت منهجية الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير على تفكيك التراث البلاغي في عمومه، ومتابعة تحولاته التاريخية، وموضوعاته، وقضاياه، وأعلامه، وثقافاتهم، وبيئاتهم.

3- ومما يجدر ذكره أن ابن عاشور حاول مقاومة التيار الأجنبي في البلاغة العربية فلا يستعين بمذاهب الفلاسفة في النقد، ومحاولتهم زج المنطق الشكلي في فهم اللغة، وتذوقها، والكتابة فيها، ويحرص على أن يظل النظر في مسائل اللغة، خاضعا للتقاليد الأدبية العربية الصحيحة، وممارسة النصوص الموروثة، وهو في هذا محافظ يريد أن ينجو بسلامة الذوق الأدبي، ونفاذه من الجمود والسطحية، اللذين كانا يخشى أن ينتهي بهما المنطق بإنزالهما بالسليقة العربية الأصيلة.

4- أن ابن عاشور قد تجاوز بالاستعارة مرحلة صباها، وكاد يحقق لها شبابها، فقد أبدى الشيخ ابن عاشور الجمال القرآني سافراً رائعاً أخاذاً، ولم يقف عند بيان المعنى الحقيقي والمجازي، والعلاقة بينهما، بل يعرض الحقيقة، ويوازن بينها وبين الاستعارة، ويبين لنا مدى أثرها في النفوس، ومبلغ إثارتها للحس فعرض ابن عاشور يجعل الوجدان ينفعل بالاستعارة القرآنية بعد أن أبدى جمالها المكنون.

5- يقف الشيخ الطاهر ابن عاشور كثيراً أمام مفردات النص القرآني، يتأمل وقع كلماته وملائمتها للسياق، والنظر في مفردات النص من أوجب ما يجب على مفسره ودارسه، لأنها مفتاح النص وزمام ما فيه من دقيق المعاني، وخفي الإشارات. وكلما أحسن الدارس هذه الوقفات، واستشف من المفردات كل ما تعطيه، وتلوح به من معنى ووحي، ورمز كان أقدر على الاندماج، والمشاركة.

6- يشتمل تفسير ابن عاشور على جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء السورة الكريمة بعضها ببعض، وفي كل قطعة من قطع السور أسباب ممدودة، في شبكة من العلائق المحكمة

النسج. كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وأنه لا غنى لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية.

7- لم يكن الشيخ الطاهر ابن عاشور يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يبعث على الملل، و لم يكن ينتقل من معنى إلى آخر انتقالا يخرجه إلى حد المفارقات التي تجمع أشتاتاً من غير نظام، فلم يكن يدع الأجناس المختلفة والأضداد المتباعدة حتى يجاور بينها، ويبرزها في صورة مؤتلفة.

8- كانت عناية الشيخ ابن عاشور في تفسيره منصرفة إلى الضبط اللغوي لشتى المصطلحات ذات الصلة بالاستعارة ويدل ذلك على إحاطته بمختلف الصور البيانية ومدى قدرته على التعامل معها بشكل رائع.

9- يلحظ الناظر في تفسير التحرير والتنوير عناية ابن عاشور باللغة العربية وآدابها، وتعتبر اللغة في تفسير التحرير والتنوير من أهم وأبرز الأسس التي قام عليها، واستوى على سوقه، بل هي العصب الذي يشد أركان هذا التفسير، ويقويه، ويميزه، ويتميز به.

10- حرص ابن عاشور على تمييز الاستعارة القرآنية على الاستعارة الأدبية، حيث نجح في إبراز الصور البيانية التي تميز بها القرآن الكريم، ولا نظير لها في لغة العرب.

الهوامش

[1]- التحرير والتنوير: ج1 / 8

Al-taḥrīr wal-tanwīr: P 1/8

[2] – المرجع السابق: ج1 / 10

Ibid: P1/10

[3] – الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم عبد الله دراز، ومحمود شاكر، دار الفكر، دمشق، سورية الطبعة الرابعة،1987، ص 61

Al-ẓāhirah al-qur'āniyyah: Mālik bin Nabī translation 'Abdul Ṣabbūr Shahīn, taqdīm 'Abdullah darāz, wa Maḥmūd Shākir, dār al-fikr, Damascus , Suriah, al-ṭab'ah al-rabi'ah, 1987, p 61.

[4]- التحرير والتنوير: ج1 / 101

Al-taḥrīr wal-tanwīr: P 1/101

[5] – المصدر السابق: ج1 / 102

Ibid: P1/10

[6] – المحصول في علم أصول الفقه: فخر الدين الرازي، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، المكتبة العصرية، ط2، بيروت، لبنان، 1999، ج1، ص 185

Al-maḥṣūl fī ‘ilm ’usūl al-fiqh: Fakhar al-dīn al-rāzī, taḥqīq ‘Ādil ‘Abdul Maūjūd wa ‘Alī mu‘awwiḍ, al-maktabah al-‘aṣriyyah, Pub. 2, Baīrūt, Lebanon, 1999, Part 1, P 185

[7] – سورة الحاقة، الآية 11

Sūrah al-Ḥaqqah, al-āyah 11

[8] – سورة الأعراف، الآية 154

Sūrah al-’a‘rāf, al-āyah 154

[9] – سورة الملك، الآية 7، 8

Sūrah al-mulk, al-āyah 7,8

[10] – سورة هود، الآية 44

Sūrah al-Hūd, al-āyah 44

[11] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق (أبو الحسن)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1974، ج1، ص 275

Al-‘umdah fī maḥāsin al-sha‘ir wa Ādabihī wa naqdihī: ’ibn rushaīq (’abu al-Ḥasan) Research Muḥammad Muḥyud dīn ‘Abdul Ḥamīd, dār al-jaīl, Baīrūt, Pub 4, 1974, Part 1, p 275.

[12] – النص والتأويل في الخطاب الأصولي ... آليات القراءة وسلطة التناص: الدكتورة بثينة الجلاصي، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2014، ص 288

Al-naṣ wal-ta’wīl fīl khitāb al-’usūlī… Āliyāt al-qirā’h wa salṭah al-tanāṣ: al-dukhtūr bathinah al-jallāṣī, Dār ru’yah lil-nashar wal-tauzī‘, al-qāhirah, first published 2104, P 288.

[13] – المحصول: المجلد الأول، 124

Al-maḥṣūl: part 21

[14] – منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1981م، المجلد الأول، ص 90.

Minhāj ul balaghā’ wa sirāj ul ’adabā’, taqdīm Muḥammad al-Ḥabīb bin al-Khaūjah, dār al-gharb al-’islāmī, Pub 2, Baīrūt, 1981, Part 1, P 90.

[15] – سورة البقرة، الآية 5

Sūrah al-baqrah, al-āyah 5

[16] – تفسير التحرير والتنوير: الشيخ الطيب بن عاشور، ج1، ص 245

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr, al-shiekh al-Ṭayyab bin ʻĀshūr: Part 1 p 245

[17] – سورة البقرة، الآية 7

Sūrah al-baqrah, al-āyah 7

[18] – تفسير التحرير والتنوير: ص 255

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 255

[19] – سورة التوبة الآية 87

Sūrah al-taūbah, al-āyah 87

[20]– سورة الأنعام، الآية 25

Sūrah al-ʻanʻām, al-āyah 25

[21] – سورة التوبة الآية 30

Sūrah al-taūbah, al-āyah 30

[22] – التفسير التداولي للنص القرآني: مجدي حسين، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2018م، ص 14- 15

Al-tafsīr al-tadawlī lin-naṣ al-qur'ānī: Majdī Ḥussaīn, r'uyah lil-nashwal-taūzīʻ, al-Qāhirah, 2018, p 14-15.

[23] – الكشاف: ج1 / 37- 38

Al-khashāf: P 1/37-38

[24]– البلاغة في تفسير الزمخشري"– ص 414

Al-balāghah fī tafsīr al-zamkhsharī, p 414

[25] – سورة البقرة، الآية 9

Sūrah al-baqrah, al-āyah 9

[26] – تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ص 276

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr, ʻibn e ʻāshūr: p 276

[27] – سورة البقرة، الآية 16

Sūrah al-baqrah, al-āyah 16

[28] – تفسير التحرير والتنوير: ص 301

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 301

[29] – سورة البقرة، الآية 17

Sūrah al-baqrah, al-āyah 17

[30] – تفسير التحرير والتنوير: ص 302

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 302

[31] – المرجع السابق: ص 307

Ibid: P 307

[32] – المرجع السابق : ص 313

Ibid: p 313

[33] – سورة البقرة، الآيه 19

Sūrah al-baqrah, al-āyah 19

[34] – تفسير التحرير والتنوير: ص 321

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 321

[35] – سورة البقرة، الآيه 61

Sūrah al-baqrah, al-āyah 61

[36] – تفسير التحرير والتنوير: ص 528

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 528

[37] – سورة البقرة، الآيه 81

Sūrah al-baqrah, al-āyah 81

[38] – تفسير التحرير والتنوير، ص 581

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 581

[39] – التفسير التداولي للنص القرآني: مجدي حسين، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2018، ص 76

Al-tafsīr al-tadawlī lin-naṣ al-qur'ānī: Majdī Ḥussaīn, r'uyah lil-nashwal-taūzī', al-Qāhirah, 2018, p 76.

[40]– سورة البقرة، الآية 6

Sūrah al-baqrah, al-āyah 6

[41] – سورة البقرة، الآية 85

Sūrah al-baqrah, al-āyah 85

[42] – تفسير التحرير والتنوير: ص 591

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 591

[43] – سورة البقرة، الآية 127

Sūrah al-baqrah, al-āyah 127

[44]– تفسير الحرير والتنوير: ص 717

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 717

[45] – سورة البقرة، الآيه 138

Sūrah al-baqrah, al-āyah 138

[46] – تفسير التحرير والتنوير: ص 744

Tafsīr al-taḥrīr wal-tanwīr: p 744

[47] – مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين.. دراسة تاريخية فنية: الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1988، ص 27

Mafhūm al-'isti'ārah fī buhūth al-lughawiyyīn wal-naqad wal-bālagiyyīn. Darāsah tārīkhiyyah faniyyah: al-duktūr 'Aḥmed 'Abdul Syed al-Ṣāwī, mansha'h al-ma'ārif bil-'iskandariyyah, Miṣar, 1988, p 27.